كلمات

للاستاذ علي الطنطاوي

١ — طفلان

حدثني صديق لي أديب قال :

رأيت البارحة موهناً (١) وراء ديوان المحاسبات وقهوة الشارع رهائيك القصور الشم والمنازل العوالي — رأيت مشهداً أقر بأني عاجز عن وصفه لكم ، فإن كان باقياً لا يزال ، وكانت رحمة الإنسان باقية — لا تزال — فيكم ، فاذهبوا لتروه بعيونكم . اذهبوا ، وخذوا معكم قلوبكم فإنكم ستحتاجون إليها ، واحملوا دموعكم لتريقوها أمام هـــذا المشهد الذي يرقق قلب الصخر ، ويفجر بالدمع عيون الجلمود ، وعلاً بالشفقة والحنان أقسى القلوب : قلوب الشياطين والجلادين والمحتكرين

مشهد طفلين أحدهما في نحو التاسعة والآخر في الرابعة ، ما عليهما إلا خرق ومزق وأسمال ، نائمين على الأرض عند باب القهوة ، متداخلين متعانقين ، قد التصق الصغير بأخيه ، وألقى برأسه على صدره العاري من اللحم ، يحتمي به من البرد والخوف ، وقسوة الحياة ، وظلم الناس ، والفه الآخر بذراعه يريد أن يدفع عنه بهـذه الذراع الهزيلة ، شر هـذا البشر ، ويكون له أباً ، ويكون له أباً . . وكان وجه الصغير واضحاً في شعاع القمر الشاحب ، فيه الطهر ، وفيه الألم ، وعلى شفتيه المزمومتين بقايا كلام حسبتها من بعيد بقايا امنة حامية روى بها هذا المجتمع ، فلما دنوت لم أجد إلا آثار شكاة خافتة مبهمة ، رفعها هذا الفم الصغير الذي ما تعلم البيان ، إلى الله المنتقم الجبار !

طفلان ينامان في الطريق ، ما تحتهما إلا الأرض العارية ، وما فوقهما إلا السماء العالية ، والناس الخارجون من القهوة بعد السهرة الممتعة ، والعائدون من الوليمة بعد الأكلة المتخمة ، والراجعون إلى بيوتهم من التجار ، بعد خلوة طويلة أعدوا فيها العدة لجناية جديدة قذرة على هذا الشعب المسكين ، والغادون إلى النوادي والملاهي ليبدأوا سهرة أخرى ، يصبون فيها مالهم على الوائد الحضر ، ويذوبون صحتهم في كؤوس الخمر ، ويضيعون دينهم في تلك الليالي الحمر ، في الفسق والعهر ، كل أولئك كانوا يمرون بالطفلين ولكن لا يلتفتون إليهما ، ولا يحملون بهما ، وهل يحفل أحد بالكلاب النائمة في الطريق ؟

من أين جاء هذان الطفلان ؟ أين أبوهما ؟ أين أمهما ؟ كيف يعيشان ؟ هل ابتسم لهما الحظ فوجدا (تنكة زبالة) لأحد الأكابر اينبشاها ، فيستخرجا منها عشاءهما أم باتا على الطوى ؟

لم يسأل أحد ولم يعلم أحد !

ولا أنا ... وهل أنا إلا واحد من (هؤلاء) الناس ؟!

قال الراوي :

وأسرعت إلى أولادي ، أحمل إليهم الحلويات الغالية ، أعدها لهم بجنب السرير ، حتى إذا أصبحوا وجدوها ، وأغطيهم كيلا تصيبهم نفحة هواء في هذه الليلة العاصفة ، حتى إذا أمنت عليهم وارحت ضميري . . قمدت أكتب مقالة في محاربة الشيوعية ، ومكافحة الإجرام ، وتمجيد النظام الديمقراطي الذي يملأ الأرض حرية ومساواة وعدلا وأمنا

***

وخلا شارع بغداد إلا من الرياح العاتية ، والكلاب الشاردة ، وهذين الطفلين اللذين ينامان على الأرض بلا وطاء ولا غطاء ؛ ليس معهما إلا أشباح الظلام ، وتهاويل الرعب ، وآلام الجوع والبرد والحرمان !

٢ — عواقب اللذات :

كنت أطالع إضبارة في محكمة الجنايات فوجدت صفحات في الفسوق تثير الشيخ ، وتصبي الحليم ، وتشعل النار في أعصاب الشاب القوي ، حتى ما أظن أن في الدنيا قصة من قصص الأدب المكشوف ، تفعل في إثارة الشهوة فعلها فتركت الإضبارة ، وفكرت ...

وقلت . . .

— هل تريد يا علي الطنطاوي أن تكون مكان هذا الرجل

(١) الوهن والوهن نصف الليل

تعيش هذا العيش اللذ بين الغيد الأوانس ، والعذارى الفاتنات ؟ قل ، وخل عنك هذا « الكذب الاجتماعي » الذي تمارسه الناس

فسكت على المنطاري ، وتكلمت نفسه ، فقالت : نعم

— قلت : وهل تريد أن تكون مكانه في السجن ؟

— قالت : لا   قلت : ولم ؟

— قالت : لأن اللذات قد ذهبت، وبقي عذاب السجن ...

— قلت : فلماذا لا تذكر ذلك كلما دعاك الشيطان إلى لذة محرمة فتأتي إليها ، وتقول لنفسك إنها ستذهب كما ذهبت اللذائذ الماضيات ، ويبقى العقاب ؟ ولماذا لا تذكره كلما دعاك العقل إلى خير فتكاسلت عنه لصعوبة البذل ، ومشقة العمل ، وتقول لنفسك إنها ستذهب هذه المشقة ويبقى الثواب ؟

فكر فيما عملت من حسنات وخير ؛ بذلت فيها من جهدك ومالك ، وخالفت فيها هواك ، ماذا بقي من الصعوبة التي وجدتها عند الحسنات ؟ وماذا بقي من اللذة التي أصبتها عند المعاصي ؟ لقد ذهبت آلام الطاعة وبقي ثوابها ، وذهبت لذات المعصية وبقي عقابها ، كالتلميذ يوم الامتحان إن كان قد جد وجد النجاح ونسي تعب المطالعة ونصب السهر، وإن كان قد لها ولعب فقد متعة اللهو وأنس اللعب ؛ ولقي (السقوط) .

فقس الآتي على الماضي ، ولا تبع آجلا خالداً بعاجل فان ، ولا تغتر بحلاوة العسل إن كان فيه السم ، ولا تخش مرارة الدواء إن كان فيه الشفاء ..

وتصور أنك على فراش الموت، وقد باد الأمل وجاء الأجل .. ما الذي تحسه في تلك الساعة من حلاوة المعصية ؟ ما الذي بقي لك من متع الجسد والقلب ؟ هل بقي لك شيء منها ؟ هيهات ! لقد نسي الجسد لذات الجسد ، وشغلت النفس عن مسرات النفس ؛ وضاع المال فصار للورثة ما جمعت من مال ، وتصرم الجاه فلا ينفع جاه، ولا شهرة ولا وظيفة ولا أدب ولا فن ...

وتصور بعد ذلك القيامة وقد قامت، والصحف وقد نشرت، والحساب وقد أعلن؛ وكل ذرة من خير قد تهدت لك؟ وكل ذرة من شر قد سجلت عليك ؛ أحصاه الله ونسيته ، وعده وأغفلته ، أين من نفسك يومئذ موقع هذه اللذاذات ؟ وأين مكان هذه النعم ؟ ما الذي استفدته منها ؟ ما أفدت إلا الندم ! وماذا استهلكت منها ؟ ما استبقيت إلا الألم !

***

فاذكر هذا كل صباح وأنت غاد إلى عملك، وكل مساء وأنت مضطجع لمنامك ، وكلما أغرتك بشر لذته ، وكلما صدتك عن خير مشقته ...

جرب هذه التجربة السهلة ، وانظر كيف تكون بعدها .

٣ — المعلم الأديب

فتحت اليوم درجا لي فيه أوراق لم أفتحه من نحو عشرين سنة ، فوجدت صفحات رائعة من قصة كنت شرعت فيها ونفسي مترعة عاطفة ، وقلبي متفتح للإلهام ، ثم قطعتني عنها شواغل التعليم (وقد كنت يومئذ معلما) وصرفتها من ذهني ، حتى أني لأجدها الآن غريبة عني ، كأنها لم تكن لي ، ولم أكن كاتبها .. فجعلت أتلوها وجعلت صور أيامي الماضية تمر أمام عيني .. فأرى تلك الأيام التي أضعتها في التعليم ، وتلك الأفكار والصور التي خسرتها ونكبت بها .. وليس المنكوب من ذهب ماله ، أو احترقت داره ، فإن الصحة ترد المال، والمال يعيد الدار ، ولكن المنكوب من ثكل أفكاره ؛ وأضاع ذكاءه ؛ وعاش بائساً يائساً ، ومات مغموراً منكراً ؛ وقد كان أهلا لأن يسعد حيا بذكائه ؛ ويخلد ميتا بآثاره

إن المنكوب هو المعلم الأديب ؛ الذي وهب له الأدب ؛ وكتب عليه التعليم : إنه يسكب ثمرة حياته ، وعصارة قلبه ؛ الليالي الطوال التي أحياها ساهراً ، عاكفاً على كتبه ، مطفئاً نور عينيه ، مذبلا زهرة شبابه ، يصبها كلها بين أيدي طلاب لا يكاد أكرمهم يحفظ لمعلمه عهدا ، ولا يذكر له ودا ، يصبح المعلم الأديب وفي نفسه موضوع المقالة، وفيها صورها وأفكارها، ولكنه لا يستطيع أن يكتبها ، إنه مشغول عنها بتصحيح وظائف التلاميذ ؛ هذه الوظائف التي تحرمه لذة المنام ، وأنس السمر، ومتعة المطالعة ، وتأكل صحته ووقته ، ثم إذا انتهى منها

وعلها إلى التلاميذ مصححة لم يتداول أحدهم إلى الدار فيهما ، وإنما يلقونها في أدراجهم لينظر فيها الشيطان ، ثم يأتي الآذن فيجمعها ليوقد بها النار ..

وبعد الدرس وينفق في إعداده من الجهد ما لا يعلمه إلا الله ، والخاصون من المعلمين ، ويلقيه متدفقاً متحمساً . فلا يروعه (إن كان في الابتدائي) إلا تلميذ يخز رفيقه بمرفقه ليريه كيف اصطاد ذبابة .. أو ليحدثه (إن كان في الثانوي) حديث رواية في سينما ، أو مباراة على ملعب ، أو تلميذ يقرأ قصة سخيفة من قصص الجيب، أو يصور على الورقة ثوراً له قرنان، أو يرسم الأستاذ المحترم .. وإن كان (في الجامعة) رأى أمامه فلماً من أفلام الحب ناطقاً بلغة العيون ..

ثم يكبر الطلاب ، فينكرون المعلم وينسونه ، وربما احتاج إلى أحدهم فأراه صنوف الحرمان ، وربما صار أحدهم رئيسه فأذاقه ألوان الردى ... مسكين والله المعلم !

٤ — أمير الخباز

هذه صورة وصفية صادقة لحادث حدث من يومين ، وكان النهار مصحياً دافئاً ، وآلاف الشباب يتبخترون على طرق شارع فؤاد ، مرجلة شعورهم ، مصقولة وجوههم ، محبوكة ثيابهم ، يختالون زهواً وإعجاباً ، كسرب من الطواويس ، أو كجماعة من ديكة الحبشة ، منفوشاً ريشها ، ومئات البنات ، من كل جميلة صنعتها يد الله ، وذات جمال من عمل الحلاق والخياط ، وبائع الأصبغ وصانع العطور ، يخطرن ، ينثرن حولهن الفتنة ، وينشرن الإغراء

وشمس الأصيل تطل من خلال منافذ الشارع الغربية ، كما يطل الأمل من فرج اليأس ؛ فتنقل هؤلاء الناس من أرض الحقيقة إلى سماء الأحلام ، فيذهبون جميعاً إلى أعماق حلم ذهبي ، لتضيع فيه هذه الرؤوس المتعانقة ، التي غرقت في نشوة الحب ، وغابت في هذا الهمس الدائم ، الذي تنسى معه الدنيا وما فيها ، وهذه الرؤوس المفردة التي تتمايل بذكريات لذة ماضية ، وخيالات لذة لم تأت ، وتقرص في رؤى شيطانية فاجرة من عمل الحرمان

ورأيت في وسط هذا العالم البهيج ، السابح في غمرة النعيم ، صورة من صور البؤس ، ومظهراً من مظاهر هذا الظلم الاجتماعي .. رأيت صبياً لا أظنه قد أكمل العاشرة ، شاحب الوجنات من الهزال ، بادي العظام ، يمشي حافياً ، بخطى واهنة متقاربة على ساقين كأنهما قصبتان من القنب ، يلبس معطفاً واسعاً ممزق الظهر يتعثر فيه تعثراً ، فوق قميص رقيق مخرق ، يحمل على عنق دقيق مثل عنق الدجاجة (فرشاً) كبيراً عليه ركام من الخبز ، يكاد الغلام ينسحق تحته

وكان هؤلاء المنعمون الذين أتخمتهم التخمة ، وأبطرهم الترف ، يتحامونه ويبتعدون عنه ، ويضمون ثيابهم أن تلامس ثيابه ، كأنما هو مجذوم أو مجرم ، أو كأنه وحش كاسر .. ولم يلتفت إليه واحد منهم ، ولم يرحم هذه الطفولة المعذبة ، ولم يقع عليه نظر ، وإنما كانت الأنظار كلها منصبة على تلك العيون ، التي يتدفق منها الفتون ، وتلك القدود ، التي تميس برقة ، وتخطر بدلال ...

وكانت السيارات تتسابق تحمل المدللين من أبناء الأمة : الموظفين الكبار الذين تهبط عليهم الخيرات بلا حساب ، والمجدودين من الوارثين وأغنياء الحرب واللصوص المختبئين في ثياب الأشراف

... ومرت سيارة أنيقة فخمة من سيارات الدولة فيها سيدة ملفوفة بالفرو ، تكاد تتفزر (١) مما نفخها البطر ، وولد واقف على شباك السيارة ، قد مد رأسه ينظر ويتلهى ، وكأنه يسخر من هذا الشعب الذي دفع ثمن السيارة من عرق عامله ، ودم فقيره، ليركب فيها هو وأمه ، إلى الاستقبالات ، والمخازن والسينمات

ووقفت السيارة فجأة إلى جنب الغلام الذي يحمل (الفرش) ودفعه أحد السادة حتى لا يدنسه فمال على السيارة ، فمس طرف رغيف مما في الفرش وجه الولد مساً رفيقاً ، وقامت القيامة ووقف القسم الظالم من هذا الشعب ، أمام القسم المظلوم ، يمثل الأول ولد السيارة بقسوته وكبريائه ، وأخذه ما ليس له واستطالته على من دونه ، ومثل الثاني غلام الخباز ، بضعفه وبؤسه وكدحه وذلته ، صرخ الولد وأعول ، وهاجت الأم ، ونزل

(١) التفزر من العامي الفصيح